

آثار تونة الجبل

مقبرة بيتوزيريس — حفائر كلية الآداب

تونة هي الجزء الغربي من مدينة هرموبوليس ، وقد أخذت هذا الاسم من اسمها اليوناني القديم تانايس أو تونس وأضيفت إليها لفظة الجبل ، لأنها تقع في مكان مرتفع عن الوادي . وتشمل آثارها مقبرة بيتوزيريس التي كشفتها مصلحة الآثار ثم حفائر كلية الآداب .

أما مقبرة بيتوزيريس فهي في الحقيقة ليست خاصة به ، وإنما هي مقبرة له ولأسرته التي نستطيع أن نتتبع تاريخها مدة خمسة أجيال ، شغل فيها رجالها منزلة كبيرة في هرموبوليس ، والجد الأعلى لهذه الأسرة هو « جد جحوثي أوف عنخ » الذي كان يشغل وظيفة كبير كهنة تحوت . وقد أعقب هذا ابناً يسمى « نسي شو » ، وأعقب نسي شو ابناً يسمى بيتوزيريس ، وأعقب بيتوزيريس ابناً يسمى « جد حر » ، وأعقب جد حر ابناً يسمى « يدريكم » ، الذي يكون الجيل الخامس والأخير من هذه الأسرة ، وكان يشغل أيضاً وظيفة كبير كهنة معبد الإله تحوت .

ويرجع عهد هذه المقبرة إلى القرن الرابع قبل الميلاد ، وهي تتكون من غرفتين ، الأولى مستطيلة تزيناها واجهة جميلة ذات أعمدة ، وهذه الغرفة ألحقت بالبناء الأصلي وخصصت لعبادة بيتوزيريس . أما الغرفة الثانية فهي البناء الأصلي وهي مربعة تقريباً كانت مخصصة لعبادة جد بيتوزيريس وأبيه ، ويقسمها صفان من الأعمدة إلى ثلاثة أقسام ، في نهاية القسم الأوسط منها حفرة جنازية مبنية بالحجارة في جزئها الأعلى ، ثم محفورة بعد ذلك في الصخر ؛ وهي توصل بعد نزول ثمانية أمتار إلى مكان واسع تحت الأرض به قبر بيتوزيريس وتابوت زوجته وتابوت أحد أبنائه وأمكنة كانت معدة لوضع توابيت أخرى .

ولقد أصبحت هذه المقبرة بعد موت بيتوزيريس مكاناً يسعى إليه الزائرون ومحبو التحف والآثار ، وخاصة اليونان الذين كانوا يجوبون أنحاء القطر المصرى فى هذا الوقت ؛ ولم ينس هؤلاء الزائرون أن يتركوا تذكراً لزيارتهم بكتابة أسمائهم وآمالهم وصلواتهم على جدران المقبرة . وظلت المقبرة هكذا موضع تبحيل الناس واحترامهم طول القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد ، ثم فقدت هذه المنزلة فى أواخر عهد البطالسة ؛ إذ منذ هذا العهد عاث الناس فيها فساداً ، فحربوا المدفن وأتلفوه واتخذوا من بعض أجزاء المقبرة أمكنة يدفن فيها عامة الشعب موتاهم . وفى العصر البيزنطى كثر عدد المدافن داخل المقبرة وخارجها ، وأخذ مستوى التراب المحيط بها فى الارتفاع تدريجياً حتى غمرها وأخفاها عن الأنظار ، فأصبحت بذلك بمنجى من استمرار تخريبها وظلت مجهولة حتى منتصف القرن التاسع عشر ، مما أدى إلى بقاءها محفوظة مصونة طول هذه المدة . وحوالى سنة ١٨٦٠ عرف فلاحو القرى المجاورة لها وجودها ، ولكنهم لم يخبروا الحكومة بذلك إلا فى أواخر شهر نوفمبر سنة ١٩١٩ ، إذ أبلغ أحد أهالى الأشمونيين مصلحة الآثار أنه يعرف « معبدًا » فى مكان معين بجبل دروة ؛ فكلفت المصلحة مفتشها بمديرية المنيا باستطلاع الأمر فعملت المجسات فى هذا المكان وظهرت الأطلاف العليا للبناء الذى يسميه الأهالى معبدًا ، وما هو فى الحقيقة إلا مقبرة بيتوزيريس وعائلته . ثم عهدت المصلحة إلى مسيو لوفشر الأمين المساعد بها فى ذلك الوقت ، بكشف هذا البناء وإزالة الأتربة التى كانت تحيط به وتغطيه ، فتم كشف المقبرة ووصفها وطبع نصوصها فى ثلاثة مجلدات كبيرة .

ولمقبرة بيتوزيريس أهمية خاصة لأنها أكمل أثر معروف يمثل لنا فترة الانتقال بين العصر السائى الفارسى وبين العصر البطليموسى ؛ فهى وثيقة قيمة لدراسة الفن المصرى فى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد ، حينما كانت المدرسة المصرية تجود بآخر ثمراتها الوطنية الصميمة ؛ وتظهر أولى مظاهر

الفن الاجنبى اليونانى . أما تقليدها للقديم ، فيتجلى فى مناظر الطقوس الدينية المختلفة التى رسمت على الجدران الداخلية لهذه المقبرة ؛ إذ أنها تتبع الطريقة التقليدية المصرية وتشبه فى شكلها المناظر الموجودة بمقابر طيبة ، فنرى على الجدران صفوفاً طويلة من حاملى وحاملات التقدّمات والقرايين ومناظر للحرف اليدوية المختلفة ومناظر العمل فى الحقول ومناظر تربية الحيوانات ؛ وهى بذلك تستعيد المناظر القديمة الموجودة على جدران مصاطب ممفيس ومقابر الدولة الوسطى وبعض مقابر الأسرة الثامنة عشرة . ولقد عولجت تلك المناظر والموضوعات بالأتقان والمهارة والمرونة التى تمتاز بها نهضة الفن فى العصر الصائى ، ولسكنها زادت عليها قوة إحساسها بالحياة ؛ فنرى فيها محاولتها أن تكون مؤثرة فاتنة ، كما نرى فيها كثرة الحركة التى كانت دائماً طابع مدرسة هرموبوليس والتى تثبت تأثير الفن اليونانى فى الفن المصرى وتشكيله له . فإذا نظرنا مثلاً إلى حاملات التقدّمات والقرايين نرى أنهن يظهرن فى هياكل مختلفة ويبدن حركات وإشارات لطيفة ، ويمثلن أحياناً مصحوبات بأبنائهن . وإذا كنّا فى مقابر طيبة كمقبرة رخمارع ، نرى فى المناظر المماثلة حركات الأمهات والأطفال متشابهة متصلة لا حياة فيها ، ومشيتن على وتيرة واحدة متكيفة لا تأثير لها ، فإننا فى مقبرة بيتوزيرويس نرى خلاف ذلك ؛ إذ يرسم الفنان كل شخصية مختلفة عن غيرها فى شكلها وحركاتها ، فهذه أم تمسك طفلتها من ذراعها ، وتلك أخرى تحملها على ذراعها وهى نائمة ، وثالثة تحمل طفلها وهى تحضنه ، كل ذلك فى أشكال حية ذات تأثير وفنّة . وإذا نظرنا إلى حاملى القرايين نرى أنهم يمثلون فى أشكال متباينة فى الزى والهيئة ، ونرى فيهم الأبيض والزنجى والنمى فى وجوههم المرح والسرور .

وتأثر الفن المصرى بالفن اليونانى جاء نتيجة لقدوم اليونان إلى مصر وانتشارهم بها منذ الأسرة السادسة والعشرين . وبعد غزوة الاسكندر اتخذ

اليونان مصر وطناً ثانياً لهم ، وأصبحت لهم مدن خاصة بهم مثل مدينة بتولومايس التي تقع جنوب هرموبوليس بمائتي كيلومتر .

هذا فيما يختص بالمناظر — أما النصوص فهي مقتبسة من نصوص مقابر ممفيس وطيبة ونصوص الأهرامات وكتاب الموتى ، ويرجع بعض صيغها إلى عهد الدولتين القديمة والوسطى . وتدل نصوص مقبرة بيتوزوريس على أن كاتبها لم ينصوص مقابر الأسرات الأولى ومقبرة «حاي جفع» ، و«سحْتَبْ إب رع» و«متوحتب» ، كما هو ملم بالقصص المصرية مثل مخاطرات سنوحى .

وهذا الاقتباس من الأدب الدينى القديم ، وهذه الاستعادة وهذا التذكر للصيغ المصرية القديمة ليس إلا أشياء طبيعية فى مقبرة من هذا العصر ، فهى لا تدعو إلى العجب ولا تستلفت الانتباه الكثير . وإنما الذى يدعو إلى العجب حقيقة هو أننا نجد على جدران مقبرة بيتوزوريس سلسلة من النصوص الفلسفية الدينية ، مشابهة فى أفكارها وصيغها بل فى تعبيراتها لبعض أجزاء من كتب اليهود المقدسة :

وهذا التشابه فى الأفكار والعبارات بين نصوص مقبرة بيتوزوريس وبين كتب اليهود له متعة عظيمة ، لأنه يدلنا على المنزلة الكبيرة التى وصلت إليها الديانة المصرية والتى وصل إليها القسيس المصرى فى هرموبوليس فى القرن الرابع قبل الميلاد . وليس غريباً من الناحية التاريخية تأثير التفكير المصرى فى الديانة اليهودية ، لأن اليهود اتصلوا بالمصريين . ووعوا الكثير من أفكارهم وحفظوا الكثير من تعبيراتهم ، وخصوصاً أثناء سنى إقامتهم بمصر وذلك أن كثيرين منهم أقاموا بمصر واستوطنوها وكونوا لهم فيها مستعمرات خاصة ، مثل منطقة الفتين . وهذه المستعمرات ازدهرت فى أواخر القرن السادس قبل الميلاد ، فليس من المستحيل إذاً أن تكون بعض نصوص الكتب الدينية العبرية وبعض الأمثال والحكم اليهودية . مأخوذة من



بعض أعضاء الرحلة أمام مقبرة بيتوزيريس

الأدب الدينى المصرى فى العصر السائى الفارسى ، كما أنه ليس من المستحيل أن يتأثر أدب اليهود ببعض المميزات التعليمية وبعض التعبيرات والصيغ التى تكونت ونضجت فى المدارس الكهنوتية المصرية ، مثل مدارس هرموبوليس .

وبعد كشف مقبرة بيتوزيريس بحوالى عشر سنوات (فى فبراير سنة ١٩٣١) ، عمت كلية الآداب بالجامعة المصرية إلى الدكتور سامى جبره بعمل حفائر فى المنطقة المحيطة بالمقبرة ، لما تبينته من أهمية هذه المنطقة التى كانت مقراً لعبادة الإله تحوت إله العلم والحكمة عند قدماء المصريين ، ولما دلت عليه هذه المقبرة من عظم شأن عائلة بيتوزيريس التى كان يشغل رجالها وظيفة كبير كهنة الإله تحوت

وقد كشفت حفائر كلية الآداب منطقة كبيرة فى الفترة الواقعة بين سنتى ١٩٣١ و ١٩٣٩ ، ونتج عن ذلك العثور على مجموعة قيمة من الآثار . فمن هذه الآثار بعض مقابر صغيرة مبنية بالحجر الجيرى ذات أشكال مختلفة ؛ منها ما يشبه الهرم الكامل ومنها ما يشبه الهرم المدرج ومنها ما يشبه مقابر المسلمين الحديثة . ومحتويات هذه المقابر قليلة لا تتعدى بعض الأواني الفخارية وبعض الأوجه المستعارة الملونة أو المذهبة ، التى توضع عادة على وجه المومياء . ويجوار هذه المقابر توجد بعض منازل مبنية باللبن وملونة ، يرجع تاريخها إلى الفترة الواقعة بين القرن الرابع قبل الميلاد والقرن الثانى بعد الميلاد . وعثر فى نفس المنطقة على بعض الأبنية المزدوجة التى يحتوى كل منها على معبد ومقبرة فى الوقت نفسه ، وقد نهبت معظم محتوياتها فى العصر الرومانى لأنها كانت محط أنظار الجنود المرتقة الرومانية العاطلة ، التى كانت ترابط فى الأشمونين وتزور هذه المقابر لنهبها بين الحين والآخر ؛ ولم ينس هؤلاء أيضاً تخليد ذكرى زياراتهم بتسجيل أسمائهم على جدران هذه المقابر . وما بقى من محتويات هذه المقابر لا يتعدى بعض النقود الذهبية التى تحمل

أسماء بعض الأباطرة الرومان ثم ورقة من الذهب الخالص وكية من التماثيل الصغيرة والجعل والتأتم . وزودتنا هذه المقابر ببعض النصوص اليونانية التي تعطينا معلومات عن مدينة هرموبوليس في القرن الثاني بعد الميلاد ، كما زودتنا ببعض نصوص مصرية منقوشة على توابيت من الحجر الجيري ، تدل على أن أصحاب هذه التوابيت كانوا كهنة الإله تحوت في منطقة هرموبوليس الغربية .

ومنازل تونة الجنائزية مبنية بالطين المغطى بالجير ، وتزين جدران هذه المنازل صور ملونة غير متقنة من الناحية الفنية ، ولكنها ذات أهمية تاريخية لأنها تدل على تأثير القصص اليوناني القديم في الفن المصري في هذه الفترة . وهذه الصور عبارة عن مناظر لحوادث من قصتي أوديب وأغاثون .

وكشف معبد شيد في عهد البطالسة الإله تحوت ، ووجدت به أجسام مخططة للطائر أبيس (أبو منجل من فصيلة أبي قردان) رمز هذا الإله ، كما كشفت مقبرة بديكم حفيد بيتوزيريس .

ومن الأشياء الهامة التي كشفت بحفائر تونة ، تلك البئر الكبيرة التي حفر في العصر الروماني ، للحصول على الماء اللازم لإنشاء بحيرة يسبح فيها الطائر المقدس أبيس ، ولإنشاء حديقة لا تزال آثار تربة النيل المنقولة إليها وآثار نباتاتها موجودة بها حتى الآن ، وقد أشار بيتوزيريس إلى هذه الحديقة في نصوص مقبرته . وتدل هندسة هذه البئر على مهارة المهندس الذي وضع تصميمه وأشرف على بنائه ، ففي عبارة عن بئر واسعة عمقها ١٥ متراً داخلها بئر أخرى عمقها ١٨ متراً ، ويرفع الماء من البئر الثانية إلى البئر الأولى ، ثم يجري في حوض مربع إلى مجرى مغطى ، ثم يصل إلى بناء مستطيل عمقه ١٥ متراً وجدرانه مكسوة بالمونة ، ثم يرفع الماء من هذا البناء المستطيل إلى البحيرة والحديقة بطريقة الساقية العادية . وعمق البئر كلها ٣٦ متراً وقطرها ستة أمتار . وقد أجريت تجربة أمكن بها رفع الماء في الوقت الحالي على الطريقة القديمة .

ومن الاكتشافات الهامة أيضاً تلك المدينة الكبيرة الموجودة تحت الأرض التي تبلغ مساحتها ثلاثين فدانا ، وهى عبارة عن دهاليز محفورة فى الأرض كانت مخصصة لدفن رمى الآلهة تحوت وهما الطائر أيبيس والقرد . وهذه المدينة التى لم يسلم معظمها من عبث اللصوص فى العصر الرومانى ، كانت مقسمة إلى مناطق ، ولكل منطقة مدخل خاص يوصل إليها درج من الحجر الجيرى يصل عدد درجاته أحيانا إلى ١٢٠ درجة . وتؤدى الدهاليز إلى شوارع طويلة واسعة ، على جانبيها غرف مغلقة الأبواب مليئة بموميات الإيبيس ، التى توجد أحيانا داخل قواديس ، وموميات القرد . وفى بعض هذه الشوارع نجد فتحات منحوتة فى الصخر ، توضع بها توابيت صغيرة ولوحات ملونة عليها نصوص هيروغليفية ، كما نجد فى شوارع أخرى معابد صغيرة مهداة من حكام الأقاليم للآلهة تحوت . ويظهر أن أحد الدهاليز كان محاطاً بسور من الحجر الجيرى ، وداخل هذا السور معبد متهدم تحمل بعض أنقاضه اسم ابن الأسكندر الأكبر . وخارج السور مبان من اللبن ربما كانت مساكن للكهنة المسكفين بتحنيط الطيور والحيوانات المقدسة مقابل أجر معلوم ، إذ عثر بهذه المنازل على بقايا أدوات التحنيط .

وعثر فى أسفل درج أحد الدهاليز على معبد يرجع إلى عهد بطليموس الأول به مومياء قرد محنط زُيِّن رأسه وقدماه بحلى وتماثم من الذهب والخزف الأخضر ، وبه أيضاً حجرة ملونة قام بزخرفها بطليموس الأول تقديساً للآلهة تحوت رب هذه المنطقة .

وعثر فى شوارع بعض الدهاليز على قواديس كثيرة ، ظهر من فحص محتوياتها أن اثنين منها يحتويان على ملفين من ورق البردى ، أولهما طوله متر ونصف متر وعرضه نصف متر وهو مكتوب بالكتابة الديموطيقية والنصوص المدونة فيه عبارة عن مسائل قانونية تحدد العلاقة بين المالك والمستأجر . وثانيهما مكتوب بالكتابة الهيراطيقية والنصوص المدونة فيه

عبارة عن مسائل ميتولوجية وفلكية . أما باقى القواديس فتحتوى على موميات طائر الأيبيس المقدس ، وعلى تماثيل صغيرة من البرنز دقيقة الصنع تمثل الكهنة أو الأيبيس أو بعض الآلهة ، مثل ازوريس وأزيس وخنوم . ولما كانت هذه التماثيل عبارة عن نذور وضعت فى هذا المكان فقد نقشت عليها أسماء أصحابها ودعواتهم وأمانيتهم . ووجدت فوق القواديس تماثيل خمسة عشر طائراً من نوع الأيبيس وهى كبيرة الحجم كاملة الأجزاء مصنوعة كلها من الخشب المذهب ماعدا المنقار والذيل والأرجل فقد صنعت من البرنز . وتقف هذه التماثيل فوق قاعدة .

هذا إحصاء مختصر لأهم ما وجد بحفائر كلية الآداب فى تونة الجبل ؛ ولا يزال الحفر قائماً فى تلك المنطقة وسيستج عن ذلك دون شك العثور على طائفة أخرى من الآثار الهامة .

ابراهيم احمد زفلاوة

المصادر :

Lefebvre: Le Tombeau de Petosiris, 1^{re} partie, Description
سامى جبره : تقارير حفائر الجامعة المصرية فى تونة الجبل من سنة ١٩٣١

إلى سنة ١٩٣٩